5

محاكمة الساحرة

في 23 أيار (مايو) عام 1618 اندفع ثلة من النواب البروتستانتيين غير الراضين بعنف إلى داخل قاعة المجلس في (هرادتشين) في مدينة (پراغ)، حيث أمسكوا بموظفيْن كاثوليكيين ورموا بهما إلى خارج نافذة القلعة في تعبير بوهيمي يتسم بالقدسية والثورة. وما سُمّي بـ«الإلقاء من النافذة في پراغ» يعتبر نقطة علاّم تميز بداية (حرب الثلاثين عاماً)، وهي صراعٌ مدمّر ومجنون سيجلب الدمار على (ألمانية) عندما تكتسحها جيوش السلب والنهب وبأعداد متزايدة. وسيُقتل ثُلث السكان في هذه العملية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر من المرض والمجاعة، وستتقزّم (ألمانية) إلى مجرد ظلٍّ لمجدها السابق. وفي الوقت الذي يستنفد الفرقاء المتصارعون طاقاتهم ويضعون حداً للنزاع عبر (سلام وستفاليا) في عام 1648 يكون

(كپلر) قد مات منذ زمن طويل.

ومع أن التوترات قد بلغت ذروتها في عام 1618 فإنها كانت تتراكم منذ بعض الوقت. وقد وضع الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت اللوحة المرقّعة من الدوقيات والأمارات التي تكوّن الامبراطورية الرومانية المقدسة تحت وطأة التوتر المتزايد. وحتى ضمن الأراضي الموروثة للامبراطور (هابسبرغ) مثل (النمسا العليا والسفلى)، كان هناك إمكانية كبيرة للصراع الديني حيث كان (مجلس الطبقات) صاحب الأراضي بروتستانتياً بصورة رئيسية بينما كان أصحاب السيادة والسلطان من الكاثوليك. وكان الآرشيدوق (فرديناند) الثاني قد بدأ عملية إعادة حصته من أراضي العائلة إلى المُلْكية الكاثوليكية، ولكنها لم تكن تمثّل سوى جزء يسير.

وقد شكّلت الدويلات المستقلة خارج أراضي (هابسبرغ) تحالفات للدفاع عن النفس قائمةٍ على المذهبية: الاتحاد البروتستانتي (عام 1608) والمثياق الكاثوليكي (عام 1609). وكانت هذه التحالفات تبحث في الدول من خارج الامبراطورية عن الدعم المالي والعسكري بعد أن أوجدوا حدوداً للإثم والذنوب يضمن أن تشمل الحرب عندما تبدأ كل القوى الرئيسية في أوروبة.

بدأت الحرب بانتفاضة في (بوهيميا). كان البوهيميون البروتستانت المهيمنون قد دافعوا وبكل غيرة

ولفترة طويلة عن حريتهم الدينية. وفي عام 1617 وبعدما سُمّي الأرشيدوق (فرديناند) الثاني «ملكاً معيّناً» ليخلف (ماتثياس) عقب وفاته، كانت التوقعات تقول بأنه سوف يحترم التنازلات التي تضمن الحقوق الدينية التي فرضوها على سابقيه (رودولف) و(ماتثياس). وكان معهم الحق في أن ينظروا إلى (فرديناند) نظرة شك وريبة، وذلك لأن الكثيرين من الفارّين من اضطهاده الديني قد استقروا في (بوهيميا). وسرعان ما ندم البوهيميون على اختيارهم لـ(فرديناند) كـ«ملك معيَّن». وعندما ذهب (فرديناند) ليفاوض في دعواه في أن يصبح الامبراطور التالي في المحكمة الامبراطورية في (ڤيينا) ـ التي عاد إليها (ماتثياس) فأنهى بذلك العصر الذهبي (پراغ) عاصمة الامبراطورية ـ عندها وقعت (پراغ) بين أيدي عشرة أوصياء وكان سبعةٌ منهم من الكاثوليك ومعهم تعليمات واضحة بلجم القوة البروتستانتية.

وفي ربيع عام 1618، دعا البروتستانت إلى اجتماع لمجلس الطبقات البوهيمي لتدارس السياسات المضادة للبروتستانتيين. وجاء الأمر من (هرادتشين) حيث كان الأوصياء الكاثوليك إليهم بأن يتفرقوا. وكانوا ينظرون إلى هذا الأمر على أنه غير دستوري. وكان ردّ فعل مندوبي مجلس الطبقات أن قاموا بمسيرة إلى (هرادتشين) وألقوا باثنين من الأوصياء مع سكرتيرهم إلى خارج النافذة. وهكذا بدأت الثورة.

وبينما نظّم مجلس الطبقات حكومة مؤقتة وبدأ

بإعداد الجيش، نظّم (فرديناند) أمر هجوم معاكس ولكن ذلك استغرق وقتاً. وفي هذا الوقت انضمت (لوساتيا) و(سيليسيا) و(النمسا العليا) إلى الثورة في صيف عام 1618. وما أن جاء الصيف التالي حتى انضمت (موراڤيا) و(النمسا السفلى) أيضاً. وفي نقلةٍ مذهلة تقدم الجيش الثائر جنوباً إلى داخل (النمسا السفلى) وألقى الحصار على (ڤيينا) العاصمة الامبراطورية. وكان (فرديناند) في ذلك الوقت قد جمع جيشاً امبراطورياً يقدّر بـ 30000 رجلاً بمساعدةٍ من عائلة (هابسبرغ) الإسبانية وبمساعدة من البابا. فغزوا (بوهيميا) الجنوبية وعزلوا جيش الثوار في (ڤيينا) ورفعوا الحصار.

هنا شَغَلَت الأحداث السياسية الساحة الرئيسية. في تموز (يوليو) عام 1619 وقّع مجلس طبقات تاج (بوهيميا) معاهدة تحالف مع مجلس طبقات النمسا العليا والسفلى. في هذا الوقت كان (ماتثياس) امبراطور (بوهيميا) وملكها قد توفّي. وفي آب (أغسطس) ألغى البوهيميون اختيار (فرديناند) كـ«ملك معيّن»، وقدّموا التاج إلى (فرديناند) الخامس الأميرِ المرموق للبروتستانت في (بالاتينيت) ذي المذهب (الكالڤاني). وفي نفس الوقت اختار اجتماعٌ من سبعة مندوبين امبراطوريين في (فرانكفورت) ـ اختاروا (فرديناند) الثاني كامبراطور روماني مقدس في 28 آب (أغسطس) من عام 1619. بعدها توجه فوراً نحو الجنوب إلى (ميونخ) للتفاوض مع (ماكسيميليان) الپاڤاري وهو الزعيم القوي (للميثاق الكاثوليكي).

واتُّفق بأن تشق قوات الميثاق الكاثوليكي التابعة لـ(ماكسيميليان) طريقها شرقاً إلى داخل (بوهيميا) وعبر (النمسا) العليا. وفي نفس الوقت ستهاجم قوات امبراطورية قادمة من (ڤيينا) القوات البوهيمية في (النمسا) السفلى، وستغزو قوات من الأراضي المنخفضة الإسبانية بلاد الـ(بالاتينيت) وذلك لحماية الخاصرة الخلفية للپاڤاريين. وفي 17 تموز (يوليو) عام 1620 غزت قوات الميثاق الكاثوليكي بجيش يقدر بـ30000 رجلاً (النمسا) العليا: كان هدفهم الأول هو إعادة السيطرة على (لينز).

قاتل الامبراطور الروماني (فرديناند) الثاني مع البروتستانتيين وذلك منذ الفترة التي كان فيها أرشيدوق (ستايريا) إلى زمن حكمه كامبراطور، وبذلك خلق قدراً كبيراً من الاضطراب السياسي.

كان الانضمام إلى التمرد البوهيمي حركة متهورة بالنسبة إلى مجلس الطبقات في (النمسا) العليا، وما أن احتلت القوات الپاڤارية (لينز) حتى أصبحت العقوبة السريعة متوقعة. وبدأ (كپلر) يقلق بخصوص مستقبله. فقد كان قد اختبر إجراءات (فرديناند) المضادة للإصلاح ذات مرة. ومن ناحية أخرى ومع أن تعيينه لم يثبّت من قبل (فرديناند) بعد، فقد كان (كپلر) الحيسوب الامبراطوري بالنسبة إلى امبراطوريْن سابقين ولمدة 18 عاماً. وهذا التاريخ بالإضافة إلى عمله المتواصل في (الجداول الرودولفية) ربطا مصيره بعائلة (هابسبرغ). ولكن هل كان

بإمكانه أن يواصل عمله الفلكي وأن يبقى بروتستانتياً؟

في خريف عام 1620 وبعدما احتلت القوات الپاڤارية المدينة كان على (كپلر) أن يغادر (لينز) كي يعود إلى (ڤوتنبرغ). فقد تطلبت محاكمةُ أمه الساحرة وجودَه. ونظراً لجو التردد والقلق المتزايد في (لينز) فقد قرر أنّ من الحكمة نقلَ عائلته بعيداً عن طريق الضرر والأذى، لذلك حزم أغراضه وأخذهم معه حتى (ريجنسبرغ) حيث وَجَدَ لهم مكاناً يقيمون فيه. كان من المعيب أن يبيّن للناس سبب مغادرته، لذا تركت عائلة (كپلر) المدينة بشكل سرّي. ولم يُخبِر (كپلر) حتى مساعده (غرينغاليتوس) إلى أين كان ذاهباً. وعندما اكتُشف أمر غيابهم جميعاً كان من الطبيعي أن يفترض الناس في (لينز) أن حيسوب الامبراطور وعائلته قد فرّوا من البلدة وإلى الأبد.

إن مسلسل الأحداث التي وصلت الآن إلى ذروتها لمحاكمة أمه الساحرة قد بدأ قبل أكثر من خمس سنوات. كانت قصةً جميلة وقذرة: قصةً تتعلق بالأحقاد الشخصية والنميمة والمكائد المرتبطة بالمال والشعوذة. ومع ذلك فإن دلالتها على القوى ما وراء الطبيعية لا يعني أنها كانت حدثاً غير شائع. وفي الواقع، فإن تكرار محاكمة المشعوذين وصل ذروته المجنونة في جنوبي (ألمانية) في أواخر القرنين السادس عشر والسابع عشر. وعندما بدأت مشكلة أمه كان ما لا يقل عن ستة نساء قد

حكم عليهن بالإعدام في بلدتها (ليونبرغ) وفي غضون بضعة أشهر.

كانت جذور مشكلة السيدة (كپلر) في شخصيتها المقيتة والمتطفلة. وقد استسلم (كپلر) نفسه إلى فكرة أنها كانت تعاني من «التفاهة والتطفل والغيظ والشكوى التي لا تلين»، ولكنه كان يعزو مثالب شخصيتها إلى ضعف الذاكرة لدى امرأة في السبعين من عمرها. واهتمامها الشديد بالطب الشعبي والعلاجات عن طريق الحشائش جعل منها هدفاً سهلاً للاتهام بالسحر.

وكانت غريمتها على وجه الخصوص امرأةً غير مستقرة تدعى (أورسولا راينبولد) وهي زوجة بائع الزجاج، ومَنْ كان يناديها (كپلر) بـ«المجنونة». كانت للسيدة (راينبولد) علاقة عمل ومعاملات تجارية غير مُرْضية مع شقيق (كپلر) المسمى (كريستوف) السمكري. وبعد تبادل كلامي حامي الوطيس اتهمها (كريستوف) ووبّخها بشدة على سجلها الحافل بالذهاب إلى السجن بسبب الدعارة. وعندما اشتكت السيدة (راينبولد) إلى صديقتها السيدة (كپلر) مما قاله ابنها لم تتلق أي تأييداً ودعم. وقد أخذت السيدة (كپلر) جانب ابنها، مردّدةً اتّهامها لها بسوء السمعة. بعدها نما لدى السيدة (راينبولد) حقد وضغينة ضدّ كليهما.

كان من عادة السيدة (راينبولد) أخذ جرعات لإجهاض الحَبَل غير الشرعي. وعندما مرِضَتْ إثر تناول

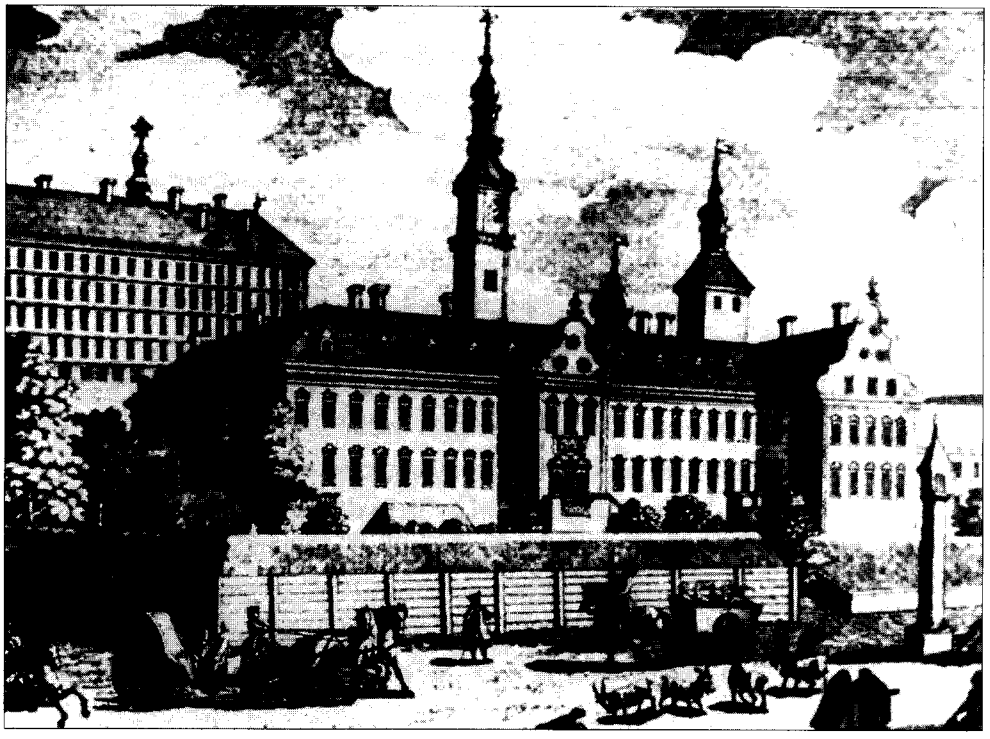

البيت الريفي في (لينز). وتقع المدرسة البروتسانتية التي طُلب من (كپلر) أن يدرّس فيها في الخلف وإلى اليمين، ويمكن رؤية برجها من فوق الـ(لاندهاوس) أو البيت الريفي.

إحداها، عَزَتْ ذلك إلى مرضها لا إلى الدواء ولا إلى العلاج الأخرق الذي تلقّتْه من أخيها الذي كان حلاّقَ وجرّاح أمير (ڤوتمبرغ): ولكنها ردّت ذلك إلى «شراب الساحرة» الذي كانت قد أعطَتْه لها السيدة (كپلر) قبل ثلاث سنوات ونصف. وبينما كان أخوها يتناول الشراب مع نائب مدير تنفيذ (ليونبرغ) المدعو (لوثروس آينهورن) وفي حالةٍ من السُكْر أهان السيدة (كپلر) وهدّدها. ومضى بعيداً حينما وضع رأس سيفه على عنقها، وهدد بإدخاله في عنقها إن لم تعمل لأخته «ترياق الساحرة». كان الوضع مستحيلاً لأن الانصياع لذلك كان سيعني الاعتراف بأنها كانت ساحرة. تشبثت بموقفها مع أنها كانت كلها

ترتجف رعباً وأجابته بكل قوة واندفاع بأنها لم تكن هي مَنْ جَعَل السيدة (راينبولد) مريضة وأنها لا تستطيع أن تشفيها. أخيراً أفاق (آينهورن) من سُكْره بما يكفي كي يضع حداً لهذا الموقف البشع.

لم تستطع السيدة (كپلر) أن تترك هذه المواجهة المُشينة تمرّ دون عقاب. وبدون أن تواجه أي تحدٍّ انتشرت إشاعات الشعوذة التي كانت تطلقها السيدة (راينبولد) مما أفسد الأمور وأوصلها إلى حد الخطورة. وفي آب (أغسطس) عام 1615 وبدعم من ابنها ومن صهرها (جورج بايندر) قسيس القرية أقامت دعوى تشهير على (أورسولا راينبولد) لاتهامها إياها بممارسة السحر. وكتبَتْ (مارغريت بايندر) شقيقة (كپلر) إليه في (لينز) تُعلمه بهذه التطورات.

لم تصِل رسالة أخته حتى 29 كانون الأول (ديسمبر). كان جواب (كپلر) سريعاً وحاسماً، فكتب رسالة حانقة إلى مجلس شيوخ بلدة (ليونبرغ) في 2 كانون الثاني (يناير) عام 1616. وبعد أن استثمر كل ما يسمح به موقعه كحيسوب امبراطوري اعترض بشدة على المعاملة التي لقيَتْها أمه وعلى سلوك نائب مدير التنفيذ وعلى الاتساعات المثيرة التي كان هو أيضاً معرّضاً لها مما سُمي بـ«الفنون المحرّمة». وطالب بأن تُرسل إليه نُسَخٌ مكتوبة عن كل الإجراءات القانونية المتّخذة ضدّ أمه.

كان لدى (كپلر) شك قاسٍ ومرير بأنه هو منشأ

مشكلة أمه. فقبل بضع سنوات كان قد أعاد كتابة مقالة موجّهة للطلاب حول المظاهر السماوية كما تبدو من القمر وعلى شكلٍ قصصي مرِح. وكان عليه أن يفسح أمام روايةِ القصة طريقة يكتشف فيها المعلومات حول القمر، فاستخدم الأسلوب الأدبي التعيس المتمثّل بأن تصل الراويةَ المعلوماتُ عن طريق عفريت يمكن لأمه أن تستدعيه، وهي عجوز متمرسة في السحر الشعبي. وكان التشابه مع أم (كپلر) مقصودٌ إلى حدٍ ما ولكن ليس إلى حد الإيحاء بأنها كانت ساحرة. كان (كپلر) يفترض أن نسخة مكتوبة باليد من هذه المقالة الصغيرة قد وجدت طريقها إلى (توبنتجن) في عام 1611 حيث «ثرثر حولها الحلاّقون في دكاكينهم» كما كان يتصور. لذلك كان لدى حلاق وجراح البلاط الامبراطوري سبب وجيه يجعله يرتاب في كون أم حيسوب الامبراطور ساحرة.

وفي الواقع ومهما كان ذنب (كپلر) الذي نغّص عليه مشاعره لم تكن لها علاقة تقريباً بالأحداث السوداء التي جرت في (ليونبرغ).

وكان (لوثروس آينهورن) في (ليونبرغ) في موقف مُحرج. فهو بصفته نائباً لمدير التنفيذ يُعتبر ممثلاً للقانون في البلدة. ولكنه كان شريكاً في الإجراءات التي سرّعت من محاكمة السيدة (كپلر). ولكي يتجنب أن يُستدعى كشاهد أو أن يُكشف عن دوره في كل ذلك فقد ماطَلَ في قضية (كپلر ضد راينبولد) بأطول وقت ممكن، لذلك

لم يكن مخطَّطاً سماع أية شهادة قبل 21 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1616.

بعدها وقبل ستة أيام من بداية الإجراءات حسب المخطط لها أخذَتْ الأمور منعطفاً نحو الأسوأ. فعندما كانت السيدة (كپلر) تتمشى في أحد الأيام صادفَتْ في طريقها مجموعة من الفتيات يحملن بعض الآجرّ (الطوب) إلى التنور. كان الطريق ضيقاً ووقفَتْ البنات على جانب الطريق مفسحين متسعاً أكبر للساحرة التي تدور حولها الشائعات. كان هناك شيء من المشادة الكلامية. وادّعت السيدة (كپلر) أنها ضَربت بالفرشاة ملابسهن وأنها ألقت عليهن نظرة قذرة. لكن إحدى الفتيات ادّعت أنها ضُرِبت على ذراعها وأن الألم بعد ذلك ازداد ساعة بعد ساعة حتى إنها لم تعد تستطيع أن تشعر بيدها أو أن تحركها.

وخلال اليومين التاليين ظهرت مؤامرة إلى حيز الوجود. فقد كانت أم الفتاة (ڤالبرغا هاللر) وهي زوجة عامل يومي مدينةً لـ(أورسولا راينبولد)، فانضمت مع عائلتها إلى صف (راينبولد). وظهر الحلاق الجراح على صهوة حصان في (توبنتجن). وفجأة وبعد ثلاثة أيام من الحادثة مشَتْ السيدة (هاللر) خلف السيدة (كپلر) ومعها سكّين وهي تصيح طالبةً منها أن تشفي ابنتها. كانت عائلة (راينبولد) وعائلة (هاللر) تريدان أن تضغطا بمزيد من الاتهامات عليها. لذلك أُحضِرتْ السيدة (كپلر) أمام نائب مدير التنفيذ وجرت مساءلتها واستجوابها. عاينَ (آينهورن)

الكدمات التي على ذراع الفتاة. وبعد مشاورات مناسبة مع صديقه الحلاق الجراح استنتج وبكل موثوقية «إنها قبضة ساحرة. إن لها الطبعة الصحيحة».

هنا ارتكبت السيدة (كپلر) عملاً غبياً جداً. فقد تقدمت نحو نائب مدير التنفيذ وعرضَتْ عليه كأساً فضية إذا ما تجاهل الحادثة كلها وواصل أخذ الشهادات في دعواها. وكان هذا هو ما كان يحتاجه هذا الإنسان كي يتجنب افتضاح دوره في الهجوم في وقت سابق على السيدة (كپلر). فعلّق قضيتها ودفع بتُهم «شراب الساحرة» و«قبضة الساحرة» والرشوة إلى (المجلس الأعلى) في (شتوتغارت). وردّ المستشارون باعتقالها فوراً واستجوابها و«فحصها بشكل صارم» بخصوص الاتهامات الموجّهة ضدها وضد معتقداتها اللاهوتية. وكان ذلك هو المرحلة الأولى من محاكمة الساحرة.

وعندما عاد من (شتوتغارت) أَمْرُ الاعتقالِ كانت السيدة (كپلر) قد أُخرجت بسرعة من أجل سلامتها إلى بيت ابنتها في (هيومادن) في أول الأمر، ومن هناك إلى (لينز) حيث أقامت مع ابنها منذ نهاية عام 1616 حتى أيلول (سبتمبر) عام 1617. وعندما عَلِمَ بتحوّل الأمور، وضع (كپلر) القضية بين يديه. واستأجر محامين على الفور من أجل أمه في (ليونبرغ) ومن أجله هو في (توبنتجن) و(شتوتغارت). ثم كتب رسالة إلى نائب مستشار دوق (ڤوتنبرغ) يبيّن له بالتفصيل انحياز نائب

مدير التنفيذ وسلوكه الشائن في القضية ومُنكراً الشائعات القائلة بأن أمه قد تهرّبت من سلطة القضاء بسبب ضميرها القذر.

وفي خريف عام 1617 صحِب (كپلر) أمّه إلى البيت وحاول أن يحرّك قضيتها المدنية ولكن دون فائدة. وأُرجئت الإجراءات بسبب مناورات عائلة (راينبولد) القانونية، وربما كان يدعمهم في ذلك نفوذ الحلاق الجراح في بلاط الدوقية في (شتوتغارت).

وفي أقل الأحوال بدأ يتلاشى الاهتمام باعتقال السيدة (كپلر) واستجوابها. وكان على (كپلر) أخيراً أن يوقف مساعيه، فعاد إلى (لينز) في أوائل عام 1618. كانت الأمور تسير ببطء شديد.

تلقى (كپلر) في الصيف التالي رسالةً من صديق الدراسة القديم (كريستوف بيزولد) الذي كان عندها عضواً في كلية الحقوق في (توبنتجن) وربما كان محاميه هناك. وذَكَر (بيزولد) مسألة خطرٍ يجب الحذر منه: فقد يحتال آل (راينبولد) ونائب مدير التنفيذ للأمور بحيث يمكن أن تتحول قضية السيدة (كپلر) المدنية فتصبح تهمة بالسحر الجنائي ضدها. وقد تبيّن أنه كان محقاً. ففي تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1619 أقام آل (راينبولد) قضية مدنية معاكسة ضد السيدة (كپلر) مطالبين بـ1000 فلورين كأضرار بسبب تسمم السيدة (راينبولد) بـ«شراب الساحرة». وهكذا كانوا بالنتيجة يدافعون عن أنفسهم ضد

تهمة الافتراء وذلك بإظهار أنها كانت ساحرة بالفعل.

ومما جعل اتهاماتهم التسع والأربعين ضدها ممكناً هو سيل القيل والقال المنطلق بلا قيد من الإشاعات حول كون السيدة (كپلر) ساحرة ومشعوذة. وكان يبدو وكأن كل واحد قد تذكّر مواجهة غريبة وغير طبيعية مع السيدة (كپلر). فمن بين اتهامات أخرى، كان يُفترض أنها مسؤولة عن موت بعض الحيوانات البيتية والحيوانات المعدَّة للذبح، وبأنها أخفت عجلاً إلى أن مات، وبأنها حاولت إغراء فتاة كي تمارس السحر، وبأنها تسببت بآلام غامضة دون أن تلمس أحداً، وبأنها كانت تمر عبر الأبواب المقفلة، وبأنها قتلت بعض الأطفال الرضع وذلك بقراءة تعويذةٍ ما فوق سُرُرِهم، وبأنها طلبت من حفار القبور أن يعطيها جمجمة أبيها حتى تضع عليها الفضة فتصبح قدحاً لابنها الحيسوب.

وكانت ميزة آخر التهم أنها كانت صحيحة على الأقل. وكان دفاعها هو بأنها قد سمعت في إحدى المواعظ عن العُرف القديم في صنع الكؤوس من جماجم الأقارب الأموات.

وأصبح الوضع القانوني خطيراً للغاية. وبوجود نائب مدير التنفيذ إلى جانبهم، بدأ سماع الشهادات في قضية (راينبولد ضد كپلر) فوراً في تشرين الثاني (نوڤمبر) عام 1619. استُدعي ثلاثون أو أربعون شاهداً وسُجّلت شهادتهم في مجلدات سميكة.

وفي تموز (يوليو) عام 1620، نجح آل (راينبولد) في أن يُقنِعوا الدوق بتحويل شكواهم إلى قضية جنائية. وأمر المجلس الأعلى باعتقال (كاثارينا كپلر) وباستجوابها تحت التعذيب إذا كان ذلك ضرورياً. ومن أجل تجنّب أية فتنة فقد أُوقِظت من نومها في يوم 7 آب (أغسطس) عام 1620 ولُفَّتْ ضمن صندوق خشبي كبير وحُملت إلى خارج (هيودمان) في هدأة من الليل.

وقد ثبّط التحول المفاجئ في الأحداث من عزيمة معكسر (كپلر). كان (كريستوف كپلر) و(جورج بايندر) وهو زوج (مارغاريث) مستعديْن للتخلي عن السيدة (كپلر) وتركها لمصيرها. فقد كانا سيخسران الكثير الكثير. كان (كريستوف) شاباً ولم يكن يستطيع أن يتحمل العار من المجتمع. كان منظر محاكمة أمّه الساحرة يجري تحت ناظريْه في (ليونبرغ) وكان ذلك أكثر مما كان يمكن له أن يتحمله. وقد نجح في نقل المحاكمة إلى (غوغلينجن). بينما كان (جورج بايندر) قسيساً وكان عليه أن يفكر ملياً بمكانته في الكنيسة.

ويبدو أن (مارغاريث) كانت الوحيدة التي كانت لا تزال تتمسك بالأمل. فكتبت إلى أخيها (يوهانز) على الفور تخبره بأن أمها كانت بحاجة إلى مساعدته. وكتب هو بدوره من (لينز) إلى دوق (ڤورتنبرغ) طالباً منه أن يُبقي المحاكمة حتى يصل. وكتب يقول «إن من حقه الطبيعي الذي منحه الله له» أن يأتي إلى نجدة أمه. وأُرجئت

المحاكمة خمسة أو ستة أسابيع. والتقى (كپلر) بأمه في السجن في 26 أيلول (سبتمبر) عام 1620.

كانت المرأة المسكينة والمذعورة والتي بلغت الرابعة والسبعين من عمرها مقيّدة بالأغلال. يراقبها حارسان مأجوران كانت تدفع لهما أجرتهما من جيبها الخاص. كذلك كان عليها أن تدفع ثمن إقامتها خلال فترة تأخير المحاكمة. وقد كشفت هذه المصاريف عن الجشع الفاضح لمعسكر عائلة (راينبولد). فقد كان أحد أسباب دعواهم ضدها هو الأمل في استغلال إمكانيات السيدة (كپلر). وكانوا قد طلبوا في وقت سابق جَرْد ممتلكاتها. ولكن بعد أن تبين أن الخادميْن كانا يتلقيان أجرهما لمراقبتها وأنهما كانا يسرفان في استخدام حطب النار مما يهدد بأن تستنفذ المصاريف موجوداتها أثناء المحاكمة، تقدمت السيدة (راينبولد) بعريضة استرحام «من باب الرحمة الإلهية» لحماية أموال المدعى عليها.

أخذ (كپلر) زمام الدفاع. وهناك ملاحظة مضحكة في أوراق المحاكمة تشهد على قوة حضوره. يقول كاتب المحكمة «تظهُر السجينة (ولسوء الحظ) مع تأييد من ابنها (يوهانز كپلر) الحيسوب». وقد وجّه (كپلر) محاميَ أمه (يوهانز روويف) إلى أن يجري المناقشات كلها بشكل كتابي. كان ذلك إجراءً أكثر كلفة وبطؤاً، ولكنه كان قد تلقى نصيحة تقول بأن ذلك كثيراً ما أدى إلى نتيجة إيجابية. لذلك فإنه لأمرٌ لا يكاد يُصدَّق بأن يُنتقد من قبل

أخيه (كريستوف) على التكاليف الباهظة. وقد سلّم (كپلر) و(روويف) دفاعهما الكتابي في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر). عندها أحضر نائب مدير التنفيذ (وقد شعر بأن هناك مناورة تعلو على مناوراته) أحضر (هيرونيمس غابلكوفر) مستشار الأميركَيْ يدّعي بالنيابة عن الدولة.

وقد استُمع إلى المزيد من الشهود في كانون الثاني (يناير) عام 1621. ورفع الدفاع في أيار (مايو) مزيداً من المناقشات الكتابية. هنا ذهب (كپلر) إلى العاصمة (شتوتغارت) للعمل في الجزء الأخير من الدفاع مع المحامي. وكان الختام عبارة عن 126 صفحة تدفع وبإيجاز كل التهم عنها. ومع أن ذلك جاء بمساعدة قانونية فإن بعض عناصره جاء بيد (كپلر)، كما أن القسم الأكبر منه يمثّل عمله هو. وكان الفضل لوجوده وجهوده في كتابة الدفاع عن أمه في أن ميزان القوى بدأ يتحول.

وقد رُفع الدفاع الختامي في 22 آب (أغسطس). وكما جرت العادة، فقد أُرسلت إجراءات المحاكمة إلى كلية الحقوق في جامعة (توبنجن) للتوصّل إلى قرار. ومن حسن الحظ أن حليف (كپلر) وهو (كريستوف بيزولد) سيتمكن من ممارسة بعض التأثير من الداخل هناك. وربما كان من دلالات صعوبة التخلص من تُهم السحر أنه وبالرغم من جهود (كپلر) المتفانية ومن وجود (بيزولد) من وراء ستار فإنهما مع ذلك لم يتمكنا من بلوغ البراءة. وأقصى ما أمكن للمحكمة أن تفعله أن تقول إنها

غير واثقة أو متأكدة. وأمرت المحكمة أن يُعاد فحص السيدة (كپلر) بأقل شكل ممكن من التعذيب وهو «الترهيب الكلامي».

ونُفّذ الحكم في 28 أيلول (سبتمبر) عام 1621 وحسب المطلب. ونُقلت السيدة (كپلر) على الرغم من احتجاجاتها إلى المكان المحدد بصحبة (أولبر) نائب مدير التنفيذ وثلاثة ممثلين عن المحكمة وكاتب المحكمة لتقدَّم إلى الجلاّد. أراها الجلاد أدوات تعذيبه وطلب منها بصرامة أن تقول الحقيقة تحت سيف التهديد والألم الشديد والمعاناة. فأنكرت أية علاقة لها بالشعوذة والسحر. يقول تقرير نائب مدير التنفيذ: «لقد أعلنَتْ أنه يجب على المرء أن يفعل معها ما يجب أن يفعل (ولكنها بريئة). حتى ولو اقتلعنا منها شرايينها الواحد تلو الآخر فقد كانت تعلم أنها ليس لديها ما تقوله. بعد ذلك ركعَتْ على ركبتيْها وتلت صلاةً إلى الرب، وأوضحَتْ أن الله سيُظهرُ آيةً أو دليلاً إن كانت ساحرة أو شيطاناً أو إن كانت لها أية علاقة بالسحر. وإذا قُتِلت فسيرى الله أن الحقيقة قد ظهرت إلى الوجود وسيكتشف بعد إعدامها أنها قد أُلحق بها ظلمٌ وعنف كبيريْن، لأنها كانت تعلم أن الله لن يُبعد عنها (روح القُدُس)، لا بل إنه تعالى سوف يقف لجانبها».

وفي ضوء شهادتها هذه وتحت تهديد التعذيب أُسقطت عنها كل التُهم. وفي 3 تشرين الأول (أكتوبر)

1621 أمر دوق (ڤوتنبرغ) بأن يُطلَق سراحها. وكان على (جاكوب راينبولد) أن يسدّد مبلغ 10 فلورين من أصل التكاليف المعلقة للمحاكمة وذلك لأنه كان البادئ في إجراءات المحاكمة، وكان على (كريستوف كپلر) أن يدفع 30 فلورين لأنه تسبب لنفسه بمصاريف زائدة عندما حوّلها إلى (غوغلينجن). وانهارت روحها ومعنوياتها بسبب هذه التجربة المريرة فماتت السيدة (كپلر) بعد ستة أشهر: في 13 نيسان (أبريل) عام 1622.

عاد (كپلر) بعد استجواب أمه إلى (لينز) فوراً. كان (كپلر) العائد إلى (لينز) في تشرين الثاني (نوڤمبر) عام 1621 مختلفاً تماماً عن (كپلر) الذي كان قد غادرها فبعد مغادرته بوقت قصير، هُزم (فريدريك) الخامس وجيش الثوار هزيمةً سريعة في معركة (الجبل الأبيض). وقُمعت الثورة البروتستانتية في (بوهيميا) والأقاليم النمساوية على طول نهر (الدانوب).

كانت المدينة لا تزال ترزح تحت احتلال الجيش الپاڤاري لها، وكان (فريدريك) الثاني يريد أن يستغل وجود هذا الجيش فيُعلن عن تكرارٍ للحركات المضادة للإصلاح التي كان قد بدأها في (ستايريا) قبل عشرين عاماً. وكان يسعى في الوقت الحاضر وراء زعماء التمرد من البروتستانت المرموقين. وفي حزيران (يونيو) نُفّذ حكم الإعدام في 27 من زعماء التنظيمات البروتستانتية في (پراغ)؛ وكان صديق (كپلر) القديم (جيسينيوس) من بينهم: فقد أُخرج لسانه وقُطّع إرباً. وقد وُضعت (دزينة)

من رؤوسهم على الرماح على برج الجسر، حيث ظلّت هناك كتحذيرات صامتة لمدة عشرة أعوام قبل أن تتفكك وتسقط. وكانت الإجراءات في (لينز) أقل دمويّةً. وقد أُلقي بـ(دانييل هيتزلر) الخصم اللدود لـ(كپلر) في السجن من بين كثيرين آخرين.

وجد (كپلر) نفسه في موقف غريب. وكان من المعروف وعلى نطاق واسع بأن إخوته البروتستانت في (لينز) قد نبذوه. والآن وبينما كان يُضطهدون فإن أحداً لم يلمسه بسوء. ومع ذلك فإن إعجابه نحو عمِّ (فريدريك) الخامس (جيمس) الأول في إهدائه لكتاب (تناغم الكون) وهروبه المفاجئ في السنة الماضية أثارا موجةً من الشائعات تقول إن الامبراطور قد وضع جائزة على رأسه (أو لمن يقبض عليه). كذلك كان ظهوره من جديد مفاجأة حقيقية. وكان من المفاجئ لـ(كپلر) أنّ أول ما جرى لدى عودته كان تثبيت تعيين (فرديناند) الثاني له كحيسوب في 30 كانون الأول (ديسمبر) عام 1621.

وكحيسوب للامبراطور، تُرِك (كپلر) بدون مضايقات أو تحرشات حتى عندما أُخِذَتْ الإجراءات في السنة التالية ضد المدرسين والدعاة البروتستانتيين الآخرين. بعد ذلك ببضع سنوات وعندما طُلب من بقية البروتستانت أن يعودوا عن عقيدتهم أو أن يغادروا البلد [كما كان الحال في (ستايريا) لسنوات كثيرة خلت]، لم يُسمح لـ(كپلر) بأن يبقى فحسب بل إنه سُمح لعامل الطباعة لديه (پلانك) وللعديد ممّن يحتاجهم (پلانك) من المساعدين المهرة كذلك.

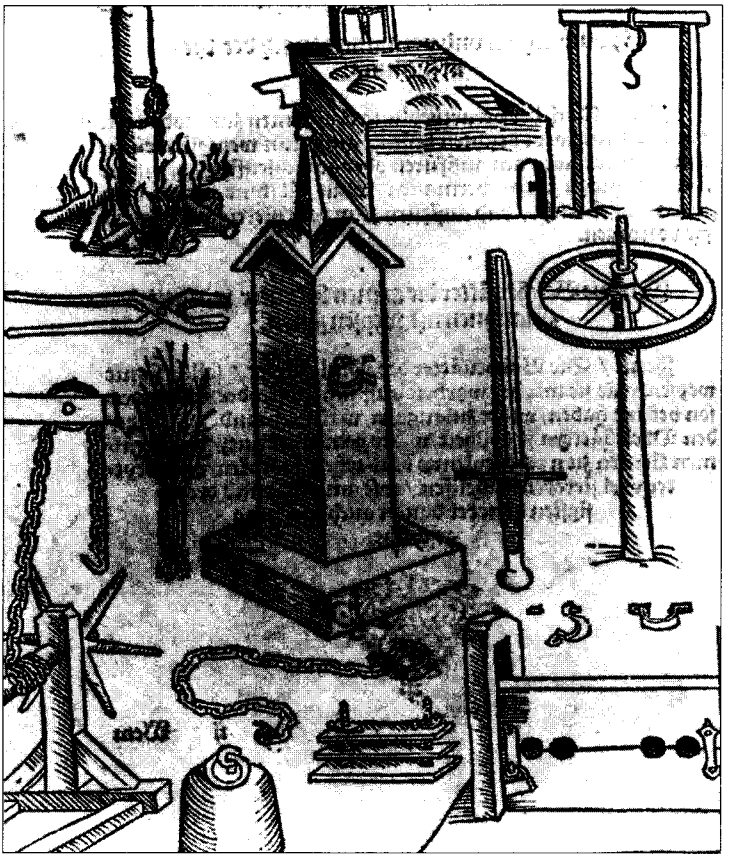

أدوات التعذيب المعروفة كما تظهر في هذا الرسم على الخشب من القرن السادس عشر وتشمل: الاستريباد (تحت/يسار) واللولب أو القلاووظ الإبهامي (تحت، وسط) ودولاب (كاثرين) (تحت، يمين) والخازوق (فوق، يسار). وقد عُرضت هذه الأدوات على أم (كپلر) وأُعلمت بطريقة استعمالها، وذلك أثناء استجوابها الأول.

وما أن جاء عام 1622 حتى أصبح عمل (كپلر) الذي أمضاه لسنين عديدة في (الجداول الرودولفية) قد شارف على الانتهاء. وكان ذلك هو الوقت المناسب بالنسبة إلى الفلكيين. فقد بدا لهم بأن عملاً في كتبٍ مثل (تناغم الكون) أو في الطبعة الثانية من (أسرار وصف الكون) عام 1621 كانا تشتيتاً لعمل (كپلر) «المهم» في تأليف جداول فلكية مبنية على ملاحظات (تايكو براهي) الرصدية. وقد ردّ (كپلر) عليهم قائلاً: «لا تحكموا عليّ بالبقاء مع العمل الروتيني المُضجر في الحسابات

الرياضية، ودَعُوا لي متسعاً من الوقت للتأملات الفلسفية التي هي متعتي الوحيدة». ولكن (كپلر) شعر في نهاية عام 1623 وكأنه كان يقوم بأعمال شاقة ومرهقة. «إن (الجداول الرودولفية) التي استلمتها من أبيها (تايكو براهي) قد حملتُها وشكّلتُها في داخلي ومنذ 22 عاماً كاملة، فتكوّنت شيئاً فشيئاً كما يتكون الجنين في جسم أمه. والآن بدأت آلام المخاض تؤلمني».

وكان جزء من العذاب مردُّهُ إلى إيجاد مكان ملائم لطباعتها. أما بالنسبة إلى (فرديناند) فإن من الدلالات السويّة المهمة أن تُطبع المنجزات الفلكية التي كانت تدعمها عائلة (هابسبرغ) طوال هذه المدة في (النمسا). فهو لن يسمح لـ(كپلر) بأن يطبع الكتاب في (أولم) المكانِ المسالم حيث يوجد عمال طباعة أكثر خبرة. كان المال مشكلة أخرى قادتْ (كپلر) إلى مطاردة ولمدة عشرة أشهر تشبه مطاردة الوز البري بدءاً من الخزانة الامبراطورية في (ڤيينا) إلى مختلف المدن ممّن كان يُفترض فيها أن تردّ الأموال الامبراطورية إلى (كپلر) ولكنها لم تفعل. أخيراً عاد إلى (لينز) في خريف عام 1625 دون أن يبدي إلا القليل حول تنقلاته. وما كان أمامه إلا خيار واحد وهو أن يجرّب (پلانك) ويرى ما إذا كان (پلانك) يستطيع أن يتناول هذا العمل ذي المكانة المرموقة: وهو طباعة (الجداول الرودولفية) الامبراطورية. ولكنهم وقبل أن يفعلوا أي شيء كانت (لينز) قد تفجّرت في فوضى مدنية وأهلية.

عُـرِضَـتْ رؤوس زعـمـاء الثورة البوهيمية على رؤوس الرماح في برج الجسر في (پراغ) كتحذير علني للناس.

في 10 تشرين الأول عام 1625 قررت حكومة (فرديناند) الثاني أن تكون جادةً في إجراءاتها التي تتخذها ضد البروتستانت. وقد تكرر النموذج المألوف للقمع والذي جرى في (ستايريا) ليعود إلى (لينز) أيضاً. وكان طَرْدُ الأساتذة والدعاة قد استغرق بعض الوقت حتى دخل حيز التنفيذ. وقد جُدِّد ذلك تحت التهديد بالعقوبة القصوى. كان الوقت قد حان كذلك لإجبار الناس على الارتداد إلى الكاثوليكية. وقد سُدَّت كل الدروب أمام ممارسة البورتستانتية. وقد تَوّجَ ذلك كلَّه الأمرُ القائل بأن الجميع أن يتحولوا إلى الكاثوليكية أو أن يغادروا البلاد

حتى غاية عيد الفصح من عام 1626. وقد أُعفي (كپلر) من كل هذه الإجراءات بسبب مكانته. وكانت ثورته الوحيدة نابعةً من أن (مفوضية الإصلاح الكاثوليكي) قد ختمت بالشمع مكتبته على أساس أنها قد تحتوي على كتبٍ بِدَعٍ أو هرطقةٍ. ومما يدعو للسخرية أنه عندما طلب صديق (كپلر) اليسوعي (پول غولدين) أحد كتبه، أخبره بأنه لا يمكنه دخول هذه المكتبة.

ووصلت الأمور في (النمسا) العليا نقطة الفصل في ربيع عام 1626. كان لا يزال خمس آلاف من القوات الپاڤارية تحتل (لينز) كضمانة للديْن المدين به (ماكسيميليان) إلى (فرديناند) الثاني لدوره في قمع الثورة الپاڤارية. وبدلاً من أخذ فائدةٍ على هذا الديْن، فرض الپاڤاريون ضرائب على (النمسا) العليا. ومن ناحيته، كان (فرديناند) يعوّل على وجود هذه القوات ليُبقي البلد تحت الستار ويواصل خطته الخاصة بالارتداد الإجباري إلى الكاثوليكية. وهذا ما وضع المحتلين الپاڤاريين في وضع غير مستقر وخطير للغاية. وفي 15 أيار (مايو) عام 1626 وانتقاماً من المضايقات المتكررة للقساوسة الإيطاليين الذين أُتِيَ بهم لإعادة الأبرشيات في (النمسا) العليا إلى العقيدة الكاثوليكية، أمر قائد السلطات الپاڤارية بالإعدام العاجل لسبعة عشر رجلاً يُنتقَوْن عشوائياً.

هنا تفجرت انتفاضة للفلاحين التي نجحت تقريباً في طرد الپاڤاريين وقوات (فرديناند) خارج أراضي (النمسا) العليا.

وشكّل الفلاحون من أنفسهم قوات كبيرة وجابوا أرجاء (النمسا) العليا، وهم يحرقون وينهبون ويسلبون. وفي 24 حزيران (يونيو) عام 1626 ألقوا الحصار على العاصمة (لينز). كتب (كپلر) إلى صديقه يقول: «بمساعدة الله وحماية ملائكته نجوتُ من الحصار دون أن أُمَسَّ بأذى». ولكن الشهريْن اللذيْن أمضاهما خلف أسوار المدينة بانتظار وصول قوات الخلاص الامبراطورية كانا محنة حقيقية. فقد كان منزل (كپلر) جزءاً من سور المدينة، فكان منزله عرضةً للاحتلال وعلى الدوام من قبل الجنود الذين كانوا يزعجونه بقدومهم ومغادرتهم طيلة أوقات الليل والنهار.

والأنكى من ذلك كله أنه بعد بداية الحصار بوقت قصير وفي 30 حزيران (يونيو) أضرم الفلاحون النار في ضواحي المدينة. ولكن ولحسن الحظ لم تُصب نسخةُ (الجداول الرودولفية) المكتوبة بخط يد (كپلر) بأي سوء عند انتشار الحريق: فقد كان (كپلر) يعمل فيها منذ وقت طويل. ولكن الحريق أتى على مطبعة (پلانك). ومع ذهاب المطبعة لم يبق هناك من سبب بعدها للبقاء في (لينز). فلقد تحولت (لينز) من الملجأ الآمن الذي لجأ إليه (كپلر) قبل أربعة عشر عاماً إلى مكان مضطرب قمعي. وعندما رُفع الحصار كتب إلى الامبراطور يلتمس الإذن بالمغادرة. وعند 20 تشرين الثاني كان هو وعائلته في قارب متوجّه نحو أعلى (الدانوب)، حيث كان (كپلر) يبحث عن مكان يطبع فيه (الجداول الرودولفية).

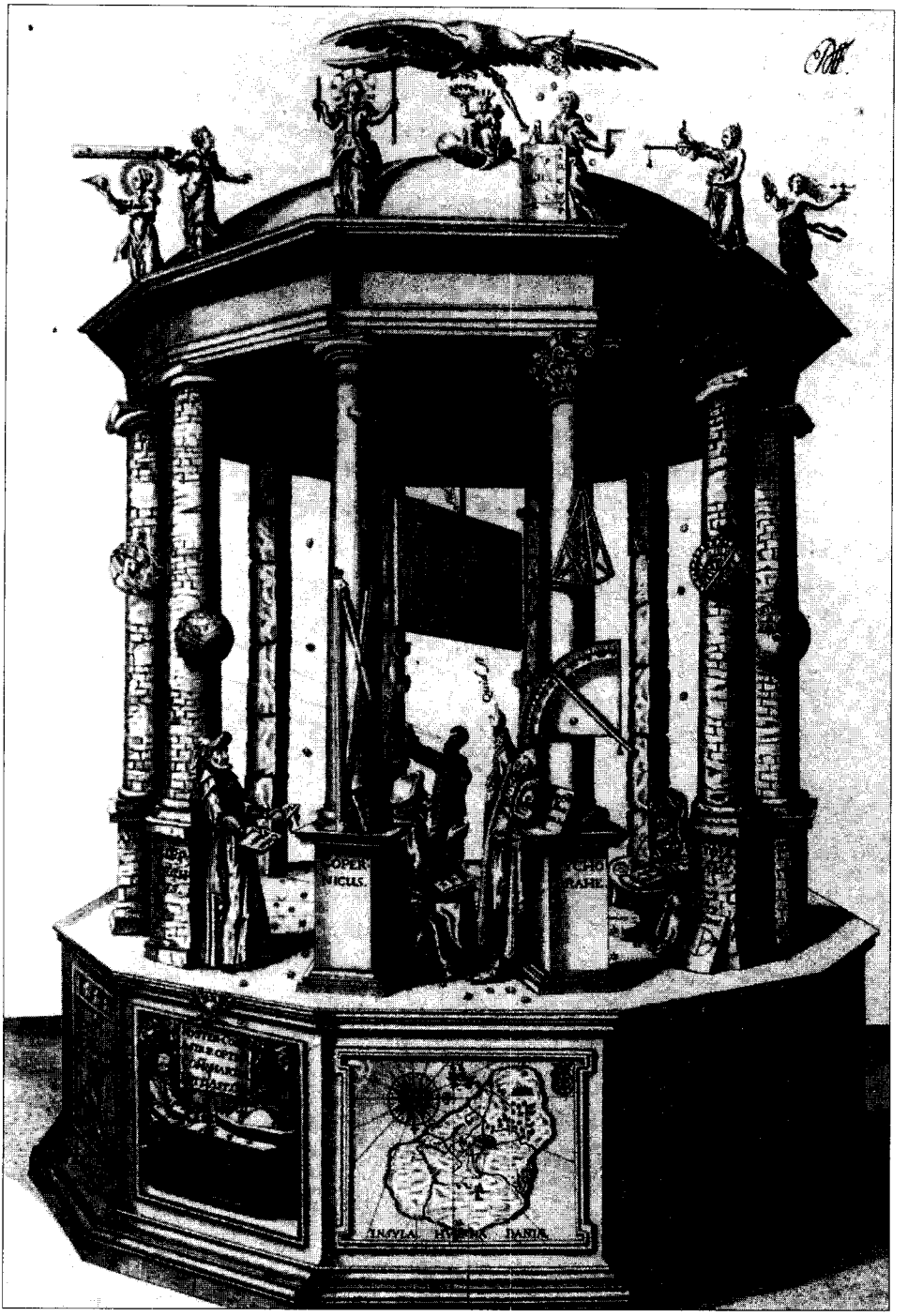

تُظهر صورة الواجهة من كتاب (كپلر) المسمى (الجداول الرودولفية) لعام 1627 مساهمات مختلف الفلكيين. في الوسط: هناك (تايكو براهي) وذراعه مرفوعة مع (كوبرنيكوس) الجالس يتدارسان ميّزات نظام (تايكو). ويظهر (كپلر) في اللوحة اليسارية السفلى.